المقتبس

غرة ذي القعدة سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

الجاحظ

لم يأت على الشرق العربي ايام كانت « رياض الازمنة » وعهد السعود حقيقة كاوائل الدولة العباسية ولا سيما زمن المأمون والرشيد — علم زاهر وحرية مطلقة وسعة عيش وسيادة تامة ونصر مؤزر وسلام شامل والقول الفصل لارباب العقل في كل حال وشأن . ولذلك لا يستغرب ان ينشأ ايام تلك الدولة مثل الجاحظ رجل العلم الراسخ والنظر السديد والادب الناضج والبلاغة التي لم يكتب لمتقدم ولا لمتأخر في هذه الامة العربية ان داناها على نحو ما اجمع كبار ارباب هذه الصناعة

ولد الجاحظ وطير اليمن يغرّد في الاصقاع الاسلامية وناهيك بالعراق في قرنه الثاني والثالث . فكانت هذه الاسباب على ما خص به من جودة الفطرة اكبر معين له للقبض على قياد العلم النافع وتحكيم العقل السليم في المنقول ولقد تخرج بالنظام صاحب المذهب المعروف في علم الكلام ولكنه لم يجمد على علمه وحده وان كان رأساً في علم الكلام وله مقالة معروفة به في اصول الدين وفرقة

تعزى اليه من فرق المعتزلة اعقل ارباب المذاهب في الاسلام دعيت الجاحظية

الجاحظ وعاء من اوسع اوعية العلم في الامة لم يجو الا لبابه خالصاً من القشور كلها كان وقفاً على الخير المحض لكل متناول فكأنه وكأن مصنفاته المجتمعة التي يتجلى فيها بعد نظره وغوره واخلاصه واخلاقه دائرة المعارف او موسوعات العلوم بلغة غربية منتشرة لعهدنا حوت كثيراً من علوم البشر او الدافع الراجح منها وهي مسبلة على المطالعة في خزانة كتب اذا قلبت اي صفحة من صفحاتها تعود من تحديقك فيها وقد حفل وطابك بما طاب من ثمرات معارف الناس

فهو ولا مراء احد افراد في هذه الامة ما اظنهم يتجاوزون عدد الانامل . هو ممن اذا ذكروا في مصاف رجال الامم رفعنا بما كتبوا رؤوسنا وابتهجت بذكراهم نفوسنا . ناهيك برجل قال في وصف كتبه الاستاذ ابو الفضل ابن العميد الوزير العالم المشهور وقد جرى ذكر الجاحظ في مجلسه فغض منه بعض الحاضرين وازرى به فسكت الوزير عنه فلما خرج الرجل قال ابو القاسم السيرافي وكان حاضراً : سكتَّ ايها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على امثاله فقال : « لم اجد في مقابلته ابلغ من تركه على جهله ولو واقفته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك انساناً يا ابا القاسم فكتب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً ولم استصلحه لذلك . »

نعم ان كتب الجاحظ على ما قال ابن العميد تعلم العقل والادب وان حسده معاصروه فما هو اول ذي نعمة محسود . بيد انه كان عارفاً بشغب المشاغبين وحسد الكارهين واليك ما قاله فيهم في كتاب المحاسن والاضداد : « اني ربما الفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة وانسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم

بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته واكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلة فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلف له فهو الذي قصدوه وارادوه وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب خريرًا نقابًا ونقريسًا بليغًا وحاذقًا فطنًا واعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألقوا من اعراضه وحواشيه كتابًا واهدوه الى ملك آخر ومتوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوبًا اليَّ وموسومًا بي

« وربما أُلفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فاترجمه باسم غيري وأُحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني اولئك القوم باعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رئاسة يأتم بهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي »

هكذا كانت الحال بين الجاحظ ومعاصريه والمعاصرة حرمان في كل زمان . ولكن كان له من القبول عند الخلفاء والامراء والاغنياء في دهره ما يقل وقوع مثله لغيره في عصر من الاعصار . فان استبشع المتوكل منظره لما ذكر له لتأديب بعض ولده وصرفه بعد اكرامه — وكان الجاحظ مشوّه الخلق قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له الخد في ذلك — فقد اختاره المأمون معلماً لنفسه وكفى بمنزلة المأمون بين خلفاء الاسلام فهو اعقل خليفة في الاسلام بلا مدافع واعلم رجال

بني العباس . وعمر مترجمنا عمرًا طويلاً فنيف على ما قيل عنه على تسعين سنة وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة بلده التي نشأ فيها . قال ابن خلكان وقد أُصيب بالفالج في اواخر عمره فكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لو قرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده وكان يقول في مرضه اصطلحت عليَّ الاضداد ان اكلت باردًا اخذ برجلي وان اكلت حارًا اخذ برأسي وكان يقول انا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ومن جانبي الايمن منقرس فلو مرّ به الذباب لالمت وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها واشد ما عليَّ ست وتسعون سنة وكان ينشد

ارجو ان تكون وانت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وحكى بعض البرامكة قال كنت تقلدت السند فاقمت بها ما شاء الله تعالى ثم اتصل بي اني صرفت عنها وكنت كسبت ثلاثين الف دينار فخشيت ان يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيضع فيه فصفته عشرة آلاف اهليلجة في كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل ولم يمكث الصارف ان اتى فركبت البحر وانحدرت الى البصرة فخبرت ان الجاحظ بها وانه عليل بالفالج فاحببت ان اراه قبل وفاته فصرت اليه فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت اليّ خادم صفراء فقالت : من انت ؟ قلت : رجل غريب واحب ان أُسر بالنظر الى الشيخ فبلغته الخادم ما قلت فسمعته يقول : قولي له : وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل فقلت للجارية : لا بدّ من الوصول اليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلتي فقال : أُحب ان اراه قبل موته فاقول قد رأيت الجاحظ ثم اذن لي فدخلت وسلمت عليه فردّ ردًّا جميلا وقال : من تكون اعزك الله . فانتسبت له فقال : رحم الله

تعالى اسلافك وآبائك السمحاء الاجواد فلقد كانت ايامهم رياض الازمنة ولقد انجبر بهم خلق كثير فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : انا اسألك ان تنشدني شيئاً من شعرك فانشدني .

لئن قدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال : يافتى اراأيت مفلوجا ينفعه الاهليلج قلت : لا . قال : فان الاهليلج الذي معك ينفعني فابعث لي منه فقلت : نعم وخرجت متعجباً من وقوعه على خبري مع كتماني له وبعثت له مائة اهليلجة .

قلنا ولو وقعت حكاية الاهليلج لرجل من المتأخرين لعدها القائل كرامة وراح يدعي ان صاحبه يعلم الغيب ويكشف مخبآت القلوب ويتصرف في الكون واهله الى اخر مايلغط به المهوسون في هذه القرون وقد بلغ من ضعف العلم والعقول ان لو انكر منكر ذلك لرموه بكل كبيرة ولكن ذاك الامير البرمكي عدّ بفطرته السليمة ما صدر عن الجاحظ قوة فراسة ونسبه الى اتفاق صادف واقعاً . ولو أتيح لنا الاطلاع على ترجمة مفصلة للمترجم به لعرفنا الجاحظ ونشأته وما وقع له في عصره وما أثر عنه من المصنفات التي تعد بالعشرات اكثر مما عرفنا منه وما علينا للوقوف على ذلك الا ان نعمد الى النظر الى تاليفه ففيها اعظم ترجمة حافلة له وكلام الرجل اصدق ما ينبيء عنه